شيء عن شوبنهور ومن فلسفته

ان رصانة اسلوب شوبنهور وعذوبته تطلان شيئاً من اسباب شهرته بين طبقة عظيمة من الجمهور الذي لم يبلغ درجة الثقافة الاكاديمية . وهو على ذلك معدود من كبار الكاتبين الالمان وأخطر من هذا كله هو انه تناول في ابحاثه جوهر الاشياء الداخلي وأفضى الى الكشف عن المأساة المحتومة على الوجود الانساني . وأنت تعرفُ في فلسفة شوبنهور شيئاً طالما احسست به ولكنك لا تجد عبارته في لسانك — وفلسفته انما هي ملاحظة عين نفاذة جريئة في نظرها وهذه الملاحظة هي مزاجه الجميع من الحذر ومن شيء غير قليل من عبوس الفكر والتهكم

والرجال الذين اهتدوا الى حقيقة اختبارات الحياة والشبان في اول اليقظة من احلامهم يجدون في شوبنهور فلسفة هي منهم بأسباب وفيهم بأسباب اذ كانت فلسفته هي في الواقع تلك الموسيقى العاطفية العميقة للفكر في القرن التاسع عشر

ولم يعب العالم الغربي ما اصابه في فلسفة شوبنهور من عرض تام مستقص لجوهر الاشياء كما تتراءى لهؤلاء الناس الذين يعيشون في قانون الغريزة او لمأساتها كما تظهرها الحياة لاولئك الذين يعرفون ان قانون الغريزة يجب دائماً ان يُبْنى على بعض الحيرة

ولقد حاول الكثيرون من الفلاسفة تعديل شذوذ اختبارات الحياة واجراءها في اعتبارهم على انها مجموعة من الاتساق الكاذب الموهوم . واما شوبنهور فواجه تلك الشواذ كما هي مواجهة جريئة وصارحَ بها وأثبتَها وبنى عليها فلسفتهُ وهذا العمل الجريء الذي لم يدخله التلفيق ولا صبغه التمويه ولا شَضَّ منهُ التكلف كان له اثره البعيد في نفوس الذين وجدوا في معظم الفلسفات الاخرى الواناً من التفاؤل المبهم الغامض

وتاريخ حياة الفيلسوف من ناحية الذكر الخالد لا شأن له بالواقع من حياة الفيلسوف في حوادثها . وانما ينصرف همُّ الناقد الفلسفي الى ما يقوله صاحب السيرة وما ينطوي عليه قوله ذاك من المعاني ، وليس من شأن هذا الناقد ان يكون معنيًّا بمعرفة الاسباب التي ادّت بالفيلسوف ان يقول ما قاله او ان يتقصى العلل التي جعلتهُ يختار لاقواله ذلك الطابع الشخصي الذي اشتهر به . الاّ ان الحالة مع شوبنهور هي غير تلك فان حياته توضح تعاليمه كما ان فلسفته تعبر عن الرجل الذي كانه

شوبنهور

مقتطف يونيو ١٩٣٠ — أمام الصفحة ٦٣

ولد في دنتزج في ٢٢ فبراير سنة ١٧٨٨ ونشأ في عائلة غنية عتت من جهة الادب بنسب من الجنون .... ويظن ان موت ابيه غرقاً كان انتحاراً — وشوبنهور من عشاق الحرية فلما فقدت دنتزج حريتها نزح الى همبرج . وكانت امه من شهيرات الروائيات في عصرها ولما انتقلت بعد موت زوجها الى « ويمر » اصبح منزلها مثابة لرجال الفكر والادب في تلك البقعة . الا ان شوبنهور وأمه لم يطق الواحد منهما احتمال الآخر فتنازعا ثم افضى بهما النزاع الى المخاصمة فاشتبكا فأخذت امه بتلابيبه ودفعت به من فوق السلم فغادر « ويمر » من يومه ذلك ولم ير امه بعد

وقد عاش شوبنهور اثناء دراسته عيشة خليعة ، وكاد يتأثر بدعوة « نخت » الى مثابذة نابليون الحرب غير انه عاد فرأى ان « نابليون لم يفعل شيئاً اكثر من انه عبر تعبيراً صادقاً عن حاسة الاثرة في الانسان لاظهار نفسه والتطلع الى المزيد من الحياة وهذا في الاقوياء هو عين ما يستشعره المستضعفون الا انهم مكرهون على كبت ذلك في نفوسهم »

وقد نال شوبنهور لقب دكتور في الفلسفة برسالته التي كتبها عن العقل المدرك سنة ١٨١٣ وهي التي اصبحت بعد ذلك حجر الزاوية في بناء صرح فلسفته وهذه الرسالة نفسها هي الاساس الذهني لعمله الآخر العظيم الذي كتبهُ عن « العالم كارادة وفكرة »

ولشوبنهور تاريخ قصير خامل في حياته الاكاديمية فقد دعي سنة ١٨٢٢ ليحاضر في جامعة برلين فاختار لالقاء محاضراته الوقت الذي كان يحاضر فيه هجل — سيد الفلسفة في عصره — فلم يحضر احد ليستمع الى شوبنهور اذ لا يَسْتَهْوُون من اجله عن هجل — فاستقال من الجامعة وهجر برلين بعد ذلك بقليل نجاة بنفسه من الكوليرا ونزل فرنكفورت حيث قضى فيها البقية الباقية من حياته ومات هناك وهو في الثانية والسبعين من العمر وقد عاش عيشة معتدلة يتجمَّل مما تركهُ ابوهُ وكان صديقهُ ورفيقهُ الوحيد هو كلبه

وبالرغم من ان الجامعات قد انكرت شوبنهور الا ان فلسفته نالت شهرتها فقد امتدح وجز فلسفته في الموسيقى كما مدحه نتشه لفلسفته في الارادة . ولما بلغ السبعين كان يتمتع بشهرة عالمية ومات وحيداً منفرداً في الثانية والسبعين من عمره وذلك في ٢١ سبتمبر ١٨٦٠

وليس في حياة شوبنهور الا القليل مما يثير الاعجاب الشخصي به فقد كانت حالتهُ حياة الرجل الحديد الزق المتكبر في اعتزاله — وقد الحت عليه في سنيه الاولى حاسة الجنسية وفتهُ في سنيه الاخيرة التطلع الى الشهرة — واحتقاره لمعاصريه الاكاديميين ومخاوفه من القتل غيلة وتحامله على النساء وسخريته من كل آداب السلوك الانساني الملفق بعضها الى بعض — وخلو حياته من اية رابطة من روابط الحب — كل هذه الصفات فيه

لا تجعل منهُ شخصية متوددةً الى الناس . ولكن هناك ناحيتهُ الاخرى الزاهرة وهي تلك التي تجد فيها شوبنهور صاحب النزعة القوية الى العقليات والشغف الصادق في سبيل ادراك الحقيقة والعاطفة السامية التي هي عاطفة شاعر رومانتيكي

وتخرج فلسفة شوبنهور من فلسفة « كانت » فقد احدث الاخير ثورة فكرية في عالم الفلسفة حين اعلن ان « كيان الطبيعة في ظاهره هو حقًّا تركيب مخيل وان اشكال الفهم هي التي تؤلف النظام الظاهر للاشياء »

وشوبنهور يقره على هذا المعنى ويعبر عنهُ تعبيراً خاصًّا به فيقول « ان كل الكائنات هي مظاهر يقرر تكوينها مبدأ العقل المدرك المتسبب اليها بالوسائل التي يفهم بها الفهمُ . وان الانسان بفهمه هذا يكوّن العالم في ظاهره ويُلبسهُ اثوابهُ المرئية

وهذا العالم المكوَّن في ظاهره من مادة صلبة ليس الا وحدة الاشياء في الزمان والمكان وهذه الوحدة هي اسم آخر لقانون الحركة وهي نفسها شكل من اشكال الفهم

والباب الاول من بحثنا سيتناول البحث في حقائق الاشياء وهو بحث تحليلي للرسم الذهني التفسيري للعقل الذي يحصر المعرفة دائماً في معرفة المظاهر

وهذا البحث هو نقد للوجود الذي تُعبّر عنهُ المعرفة — والعالم الصوري الذي يظهر انهُ كذلك هو كذلك بدون شك .وهو صورة لمصور وطبيعة تصويره تقررها طبيعة معرفة المصور — وهذا العالم بجملته الذي يفخر الماديون بانهُ مادة هو كذلك بدون شك ولكن المادة نفسها هي اسم آخر للحركة والحركة هي وحدة الزمان والمكان — والزمان والمكان هما من اشكال الفهم فاذا لم يصح انهما منفذ لمعرفة المصور ما كانت هناك مادة ما

والعالم لدى كل فرد منا هو فكرتهُ عنهُ . والحقيقة لا توجد في « العالم كفكرة » — والحقيقة بالمعنى العادي شيء غير قابل للمعرفة ما دام الشيء القابل للمعرفة هو نظام المظاهر فقط

وكل هذا العالم الخارجي هو عمل الفهم والفهم هو الآلة التي تقوم بخدمة تلك الحقيقة الداخلية التي يختبرها كل منا كنزعة يستشعرها في جسمه وفي مطالبه الطبيعية وفي مساعيه غير الواعية — اعني هي تلك التي تعرف بالارادة

وهذه الارادة ، وهي الشيء الوحيد الذي نستطيع ان نعرفهُ مباشرةً — معترف بها ايضاً في الطبيعة — فمن قوة الانجذاب ومن عمل التبلور في احداث شكل ما ومن حركات النجوم الى رغبة الانسان المسيطر عليها الوعي — في هذه كلها ليست الطبيعة الداخلية للاشياء هي ذلك العالم الذي يعرفه الفهم وانما هي تلك الارادة التي يختبرها الفرد في منازعه الخاصة العمياء والتي يجدها موضحة بامثلها سُمادَة بطريقة كونية في العملية الداخلية للطبيعة

« وكانت » وجد الحقيقة في شيء غير قابل للمعرفة وعرفه بانهُ من أعمال العقل العملي او الايمان ولكن عند شوبنهور أن الحقيقة غير القابلة للمعرفة في رأي كانت هي تلك الارادة التي تقوم المعرفة في خدمتها . وهي ارادة من سعي اعمى يستعبد لها الفهم ويقيم لها عالماً عمليًّا من الوهم. ثم هي ارادة لا ترمي الى غاية عقلية وهي كذلك عمياء تسعى للحياة وتلبس في الانسان ثوباً من سفسطة الفهم والاعذار العقلية وتعمل بمعى ظاهر في الحيوانات وفي الطبيعة التي لا وعي لها

ويقول سبنوزا « لو انهُ كان للحجر الذي ترمي به في الهواء وعي اذاً لاعتقد انهُ يتحرك بارادته هو لا بإرادتك انت » ويعلق شوبنهور على ذلك فيقول « وكل ما استطيع ان ازيده على ذلك هو ان الحجر يكون حينئذٍ محقاً في اعتقاده لان قوة الدفع في الحجر هي عينها كالقوة الباعثة لي انا — وهذا الذي يظهر في الحجر كقوة قاهرة او قوة انجذاب هو في طبيعته الداخلية نفس ما اعرفه في ذاتي كارادة ونفس ما قد يعترف به الحجر ذاته كارادة ان هو قدرت له موهبة المعرفة

وشوبنهور يجد في الحقيقة التي تقرر ان الارادة السامية العمياء هي الحقيقة الداخلية في الطبيعة وفي جوهر الحياة — علتين للتشاؤم

اما الاولى . ففي ان الارادة مقضيٌّ عليها بالعوز وهي تسعى لانها ابداً لا تكتفي

واما الثانية : فهي فيما تقرر من انهُ حيث تجد الارادة كفايتها فسرعان ما تنقلب تلك الكفاية الى وهم

ويسهب شوبنهور في دقة الوصف فيقرر ان الارادة الانسانية تعاورها مطرقتان من الالم ومن الاجهاد ويسرف في النعي على الحياة التي يقضي نصفها في ألم الحيرة عما لا يدرك ونصفها الآخر في الم المشقة في سبيل لا ينال

فلا بد والحالة هذه من وجهٍ للتخلص من متاعب الحياة اذاً السعادة مستحيلة فيها ما دام يجد المرء شقاء حيث كان يرجو ان يجد سعادته . واقصى ما يوفق اليه الانسان من سبل الخلاص هو خلاص التأمل « اي هدوء الفكر » وهذا مستطاع لفترات قصيرة في عوالم الفن. ففي هذه الفترات التي يتأمل فيها المرء في بدائع الفن ومنتجات العبقرية تتعرف الارادة الانسانية تلك الصور الخالدة من الارادة ومن جواهرها التي لا تتغير والتي تبقى حتى مع تطور التغير نفسه وهي نماذج وضاءة ثابتة تجد فيها الارادة خلاصاً لها من التغير والزمان ومن الالم والخداع — ففي نشوة التأمل في جوهر الانسان المتمثل امام المتأمل في الصور والتماثيل وما اليها يجد المرء خلاصاً له من كدّ الروح ومن اباطيل الناس — وفي تذوق

تلك الاشياء الخالدة من الحب في الشعر الغنائي يؤخذ المرء اخذة اخرى يجد فيها النجاة من آلام حيته هو في حبه ومن اوجاع ما سمي الحياة — وفي فيض الفن الموسيقي تتعرف الارادة في سيل النغمات المألوف السيقة الاثر حياتها المألوفة منها السيقة الاثر بمقدار ذلك

فاذا كانت الفنون الشكلية والادبية تعبر عن اشكال العالم الخالدة ففي الموسيقى يعبر عن الارادة تعبيراً مباشراً . وعلى ذلك فالموسيقى في رأي شوبنهور هي اكمل الفنون واوفاها نجاحاً لانها تعبر بفنها عن الارادة تعبيراً يخالط النفس

ففي الفنون يتخلص المرء من عالم الوهم وهو عالم المعرفة ومن عالم الارادة ولكن هذا الخلاص لايدوم الا قليلاً ثم ينقلب الانسان الى عالم الاشياء في الزمان والمكان « عالم المعرفة » والى الحاح الرغبة « عالم الارادة » . فهذا الخلاص غير كافٍ واذا كانت السعادة مستحيلة في الحياة فلا اقل من ايجاد وجه للخلاص من اوهام الحياة وآلامها . وهذا الوجه في رأي شوبنهور هو في الاعتدال وانكار العالم

ان هذا العالم الذي هو مُنْبَعِثُ الآلام والحية هو في الواقع تخيُّل من تخيلات الارادة ففي انكار هذه الارادة انكار للعالم نفسه بل في ذلك تلاشي العالم كله

ففي الاعتكاف اي في الاعتدال التام سبيل السلام والطريق المؤدي الى « نيرفانا » كما يقول بوذا وهو مرجع من مراجع شوبنهور في فلسفته . وعلى هذا فالفنانون والقديسون يتخلصون من العالم بتلك الرؤى السماوية التي يتمتعون فيها بهدوء الفن

ويقرر لنا شوبنهور سبيلين للخلاص من اوهام العالم وآلامه :

السبيل الاول هو الطريق الوقتي في الفنون والآخر هو سبيل القداسة والتطهير اعني حياة القديسين الذين يجعلون العالم لا شيء بجعلهم ارادتهم شيئاً غير موجود

وكتاب شوبنهور عن العالم « كارادة وفكرة » هو اهم مكتبهُ وبالرغم من انهُ ترك اشياء اخرى ذات قيمة فسيظل هذا الكتاب خالد الاثر في نفوس الناس ما دام في الناس عقل يتصور ورغبة تريد . ودقة وصفه للارادة وتصويرها بتلك الصورة التي لا نحصل فيها ابداً على كل ما نريد ولا نقنع أبداً بكل ما نحصل عليه هو وصف فذ في تاريخ الفكر الانساني

كذلك كان شوبنهور هو اول من اصرَّ على ان سلطان الارادة فوق سلطان الفهم ، وعلى نفوذ اثرها في عمل العقل باعتباره وسيلة في الحياة وفي الفلسفة . وقد بدأ شوبنهور حركة تأثر بها في العصر الحالي تأثراً غير قليل كل من وليم جيمس وبرجسون وديوي . وانك لتجد فيما تركه شوبنهور اثراً حسبك به من أثر لرجل العالم ورجل الفكر ورجل القلم

[ملخصاً عن الاستاذ ادون ادمن] يوسف حنا